حالةٌ فردية

يُحكى أن هذه الأرض التي نقِفُ فوقها الآن يا أصدقاء، كانت في يومٍ من الأيام، غابة. غابةٌ خضراء واسعة متناهية الجمال، فيها كثيرٌ من الحيوانات المختلفة والمتنوعة؛ ما يطير في السماء، وما يزحف أو يمشي على الأرض أو تحتها، وما يسبح في المياه. وكانوا يتعايشون مثلهم مثل أي غابةٍ أخرى، تحكمهم القوة وسعة الحيلة، فهذا يأكل هذا، وهذا يخيف هذا، وذاك يتربص من بعيد، وآخرُ يتحاشى ضوء الصباح فينتظر مع غيره عتمة الليل، وكذلك تُعرف أحوال الغابات.. حتى جاءهم أسدٌ في يومٍ ما وقد عزم على تشريع القوانين في تلك الغابة، وكذلك فعل...

لو أن أحدكما كان هناك في تلك الساعة؛ لما استطاع الحديث أو التفاعل مع محيطه، بل لاكتفى بالمشاهدة صامتاً مندهشاً من

ذلك المنظر العجيب. فبالإمكان من أي نقطة قريبة من موقع المحاكمة؛ سماعُ أصواتٍ مختلفةٍ آتية من كل جانب، حيوانات في كل مكان تتحرّك وتتجهّزُ للعرض الأكبر، فطيورٌ في السماء تُحلِّق وترسم أشكالاً وأشكال، فتارةً تدور في دوائر وتارةً تطير جيئةً وذهاباً، وتارةً تنزل لِتحطَّ على الأغصان فتشدوا أو تزقزق من مكانها ذاك، مفسحةً المجال لغيرها من الحيوانات لِيُفزِع من لم يفزَع بعد في الغابة.

هناك همساتٌ ناعمة، تُصدِرُها أرانب وسناجب، تمتماتٌ لوتيرتها نسقٌ يعلو باستمرار يبدو أنها للذئاب، أما النمور فقد كانت صامتة تماماً، تُحدِّقُ باهتمامٍ في كل ما تقعُ عليه أبصارها، وهي تضرِبُ ذيولَها بالعشب متململةً مجبرةً على الانتظار كغيرها، وتماماً مثلها تفعَلُ الفهود، لكن المحاكمة لا تبدأ إلا بحضور جميع الحيوانات التي كانت تعيش في تلك الغابة، ورويداً رويداً تحقّق ذلك الأمر، فوصلت بهيبة حضورها الفيلة والدببة وجلسَ كلٌّ في مكانه، نهيمُ الفيلِ واضحٌ لا يختلط على أذن، كما أن خطوات الفيلة على الأرض سببت هيجاناً كبيراً في المكان، فحلَّقت الطيور من على الأغصان مجدداً واضطربت الأرانب التي تجلس بقرب الزرافات، وذلك أخاف السناجب التي جلست على ظهور الزرافات فأخذت تقفز في أماكنها، أما الدببة فتحرّكت صوب النمور والفهود مارَّةً بجانب الينبوع،

ومع أن للغابة قانوناً يحمي الجميع، ومع أن التآلُف كان قد حلَّ بين الحيوانات منذ مدّة ليست بالقصيرة؛ إلا أن حركة الدببة قد أفزعت الأسماك فغاصت إلى الأعماق سريعاً بعد أن اتّسَعَت حدقات أعيُنِها وأخذت تتلوى بأجسامها في الينبوع يميناً وشمالاً. أما بعد هدوء الفيلة وجلوسها في أماكنها؛ ظهرت الأفاعي من مخابئها وأطلَّت برؤوسها من بين أوراق الأشجار، تُصدِرُ فحيحها وهي تنفِرُ من النمل الذي يبدو أن لا نهاية لأعداده التي تستمر بالتزايد، وهو يخرج من كل مكانٍ ولا يَعرف كيف يتوقف في بقعةٍ واحدة، ثم مجدداً عادت السماء لتضطرب برفرفة أجنحةِ النسورِ والصقورِ التي لا يمكن إغفالها، بوجوهها المتجهِّمة ونظراتها الثاقبة تراقب المكان من السماء، بقيتْ على حالها قليلاً تُحلِّق وتدور لتبصر كلَّ ما على الأرض من حيوانات، وفي النهاية حطّت كالبرق على أفرُع أشجارٍ واتّخذتها ملكيّةً مؤقتة لا يشاركها فيها حيوانٌ آخر، بيدَ أن القرود ملأتِ المكان سريعاً وكادت أن تفتعل مشكلةٍ مع الصقور والنسور التي لا تُفاوض ولا تقبل التقاسم أبداً، فتراجعت القردة وقررت تَشارُكَ الأشجار مع الأفاعي وبعض الطيور الأخرى والابتعاد عن الطيور الجارحة، لكن وحتى بعد سكون القردة في أماكنها لم ينتهي الأمر، فكادت تفتعل مشكلةً جديدةً مع الجميع بسبب أصواتِ ضحكاتها الحادة والمرتفعة، ضحكاتٌ

أزعجت كثيراً من الحيوانات وأغضبتهم، لكن القردة تداركت الأمر سريعاً فصمتت بعد أن وضعت أيديها على أفواهها كي لا تُصدِرَ صوتاً رغماً عنها، ووصلت بعد ذلك التماسيح، فمشت على مهلها حتى وصلت بقعتها المفضّلة وغطست في الينبوع الذي يتوسَّطُ الغابة، ثم ارتفعت شيئاً فشيئاً حتى بانت عيونها وشيءٌ من مقدمة أفواهِها، لتترك بقية أجسادها تحت الماء، وفعلت كفعلتها الأسماكُ بعد أن اطمأنّت أن الدببة قد ابتعدت عن الينبوع مقداراً يمكِّن الأسماك من الشعور بالراحة، ولتتضح الصورة هناك؛ فقد كان الينبوع يقع أسفل صخرةٍ ضخمة تحجُبُ عنه شمس الصباح حتى تصل الشمس كبد السماء، وقد استقرّتْ في مياهه الباردة التماسيحُ والأسماك، وأمامَ الينبوع تماماً؛ جلست في المنتصف النمور وعن يمينها الفهود وعن شمالها الذئاب، وحولهما توزّعت الفيلة والدببة، واختبأت خلف تلك الجموع كلٌّ من الأرانب والزرافات والسناجب، وتوارَتْ في الأشجار المحيطة أفاعٍ وطيور، وبَرُزَت مناقير صقورٍ ونسور، وجلست القردة على الأغصان تنتظر بفارغ الصبر كبقية الحيوانات.

تقدَّم قطيعُ الثعالب زعيمها ذي اللونين الأسود والبرتقالي، وتبعته بقيةُ الثعالب وهي تُقلِّبُ أنظارها في المكان، تنتظر كيف

ستتفاعل الحيوانات مع مجيئِها، وكما كان متوقعاً وقفت الفيلة وبدأت بالاهتياج، بينما صعدت سريعاً فوقها ذئابٌ ووصل العواءُ عنان السماء، وقفت النمور والفهود وثبّتت أنظارها صوب الثعالب، ولوّحت الدببة بكفوفها الضخمة في الهواء بعد أن وقفت على قوائمها الخلفية، وضربت التماسيح بذيولها القوية على سطح الماء فتناثرت قطراتٌ هنا وهناك، وعادت الأسماك للاختباء مجدداً في أعماق الينبوع ريثما تهدأ الأمور إذا هدأت، نشرت الصقور والنسور أجنحتها الكبيرة وطارت حول المكانِ غاضبة، بينما اختبأت الأرانب أسفل الزرافات ولَحِقت بها السناجب سريعاً، ولذلك الحدث الجلل؛ تجهّزت الثعالب تحسُّباً لأي هجومٍ قد يُشنُّ عليها في أي لحظة ومن أي جانب.

زمجر الأسَدُ من أعلى الصخرة التي ارتفعت فوق الينبوع فبدا وكأنه يقف بين الغيوم في السماء، ثم زمجر مجدداً ومجدداً حتى صمت الجميع ونظر نحوه، نظر الأسد يميناً، ثم شمالاً، وقال:

«ما بالكم أيتها الحيوانات؟ تتصرفون وكأنكم عُدتم لزمنٍ ولّى وأدبر، بل قد مضت عليه أعوامٌ وأعوام، وقد أقسمنا جميعاً ألا نعود إليه أو نعيشه مجدداً، هل نسيتم أننا اليوم نَحتكِمُ للقانون إذا ما دبَّ الخلاف بيننا؟ ونستعين به لحلِّ النزاعات مهما

كانت!! لا أحد فوق القانون، حتى أنا نفسي، وأنتم تعلمون هذا جيداً، اهدأوا واجلسوا في أماكنكم، حتى نحكم في هذه القضية الشنيعة، فنظلِمَ الظالم، وننصر المظلوم، ونعيد لاسم القانون هيبته ومكانته، ونُعلِمُ أولئك اللذين ما زالوا يعيشون بدونه؛ أنهم أقلُّ منّا شأناً، وأضعفُ رأياً، وأدنى مكانة، وعاقبتهم لا بد هي الفناء والزوال»، زَأَرَ الأسدُ مجدداً حتى اخترقت زمجرته الغابة فارتعد كل من فيها، فعاد الجميع يجلس في أماكنهم بانتظار بدء المحاكمة.

بعد أن استنفد الأسد كلَّ ما في جعبته من كلماتٍ كان قد حضَّرَها قبل وصوله، وبينما كان ينظُرُ إلى الجمعِ من عُلُو؛ نفدت بصيرته إلى ما في نفوسهم، فمع أن الجميع عاد فاسكتنَّ وهدأ، إلا أن الشرر كان يتطاير من أعين النمور والفهود، والغضب مُتّقِدٌ في عيون الفيلة والدببة والذئاب، أعيُنُ التماسيح تُضمِرُ الشر، النسور والصقور تُقلِّبُ الأبصار بين جمع الثعالب لعلّها تَجِدُ لحظة مناسبةً للانقضاض، أما القردة فكانت تتبادل النظرات بين بعضها بعضاً، تتحاور بلغتها الخاصة وتتجهَّزُ للواقعة إذا ما وقعت، بينما تجنّبت الطيور والأسماك الجميع فراقبت بحذرٍ ما يجري من حولها. أما عيون الأرانب والسناجب والزرافات؛ فقد كانت ترتجف خوفاً فتحاول

باستمرارٍ تَجنُّبَ النظر باتجاه الثعالب، وكلما فعلت غير قاصدةٍ اقشعرّت أجسادها ودبَّ الفزع في قلوبها. عندها علِمَ الأسد بأنه يجب أن يسيطر على الوضع تماماً قبل أن تسود الفوضى، فإنّ أول الغيثِ قطرة، وإن تَكُ تلكَ القطرةُ صخرةً تُرمى نحو أبناءِ المكائِد، أو مخلباً يبرُزُ في وجه الماكرين، فتلك والجميع يعلم ستكون بداية نهاية كل قانونٍ وضعته الغابةُ لِتُنظِّمَ شؤونها، ولذلك وجب على الأسد؛ مُشرِّع تلك القوانين وواضعها ومُنفِذُها وُمنفِّذُها والعالِمُ والعامِلُ بها؛ أن يتدخل، وبما أن هناك من هم أكثر منه حكمةً، فقد نادى الأسد لبومةٍ كانت تقف على شجرةٍ بعيدة فسمعته، بومةٌ عُرِف عنها فصاحة اللسان وقُوّة الكلمة، وبخفَّةٍ ودونما إحداث أي جلبةٍ عَبَرَت البومة المسافة التي بينها وبين الأسد ثم حطّت أمامه على الصخرة فوق الينبوع، وقالت: «ما بالك أيها الأسد؟ ماذا تريد مني»، قال الأسد في عجلة: «لِكُلِّ حيوانٍ منّا ميزاته وخصائصه وطباعه ونقاط قوّته، وأنتِ بكِ كُلُّ الحكمة أيتها البومة، هلّا حاولتِ تهدئةَ هذه الجموع قليلاً لعلّنا نستطيع بدأ هذه المحاكمة؟ فكما تعلمين؛ هذه هي الحادثة الأولى من نوعها في الغابة منذ أوجدنا القانون، والجمعُ مضطربٌ وغاضب، وما لنا إلا لسانكِ الذي يَقطُرُ حكمةً ورزانة. لم تأبه البوم كثيراً بمديح الأسد لها، لكنها أدارت رأسها عنه ونظرت خلفها دون أن تُحرِّكَ

جسدها، فرأت ما يراه الأسد من مكانه، وأدركت أن الأمر بحاجةٍ للتهدئة، فنظرت إلى الأسد مجدداً وقالت: «حسناً، سأجرِّب»، نظرت البومة نحو رفقائها من الطيور فتواصلوا فيما بينهم بلغة العيون، ففهمت الطيور أن البومة تريد منهم لفتَ انتباه الجميع، فتحرّكوا من مواقعهم بأسرابٍ عديدة كلٌّ سربٍ يضُمُّ عشرين طائراً، وبلغَ عددهم الكُلِّي نحو المائتي طائر، ارتفعت الطيور في السماء وصنعت عشرة دوائر فنظر إليها جميع من في المكان من حيوانات وراقبوها بصمت، ثم هبطت رويداً رويداً نحو البومة التي بدأت كلامها والجميع ينظر نحوها، ثم عادت الطيور فانسحبت طيراً يتلوه الآخر بخِفّةٍ وهدوءٍ تاركةً صوت البومة وصداه ينتشران في المكان دون تشتيت.

«يا معشر الحيوانات، أعلمُ أن نفوسكم ثائرة، للحق سائرة، على من جارَ جائرة، وأعلم أنكم تناصرون المستضعف منّا حتى ينتصر، وتُضيّقونَ على المستجير حتى يُردَعَ فيعتذِرْ ويعتَبِرْ، وإلا أتبعتموه العقابَ وألمّت به العاقبة حتى يندثِرْ، ولتعلموا أنني فردٌ من أفرادكم، معكم فيما ارتأيتم وأجمعتُم عليه، لكن في ماذا؟ في قصةٍ سمعناها وتردَّدَت أصداؤها في الغابة!! هذا لا يجوز، وإن جازَ فظُلمٌ وباطلٌ يرادُ به حق، كيف نحكُمُ فيما لم نُحِط به كُلَّ الإحاطة؟ أتقبلون أن يُستضام أحدُكُم ثم نُعلِّلَ الأمر بالخطأ غير المتعمَّد؟ لا والأشجار والينابيع لا نفعل، لا

والسماء والأرض لا نقبل، بل نستمع لُكلِّ الأطراف، نسمع ما عندها، ثم نحكُمُ بما يُرضي الجميع»، وأتبع الأسد سريعاً بصوته الجهور: «أوبعدَ هذا كلام؟»، نظرت الحيوانات إلى بعضها بعضاً وارتفعت الهمسات والكلمات المسموعة غير المفهومة، والأسد يُردِّدُ كلماته؛ «أوبعدَ هذا كلام؟»، هزّتِ الحيوانات رؤوسها إيجاباً على ما سَمِعَتْ من البومة، وقَبِلت باقتراحها.
وكان في تلك اللحظة أن وصل قطيع الحمير وأخذوا يهتفون من البعيد: «لا قول بعد قولك يا زعيمنا، بِئس الحيوان الذي يريد أن يقول أمراً بعد ذلك، بَقيتَ فينا مدى الحياة يا ملك الغابة، أطالت الأرض عُمُرَك، وأظلّتك الأشجار بظلالها، وتجمّلَت بوجودك الغابة»، واستمرت الحمير تُردِّدُ ما شابه تلك الكلمات وقارَبها في المعنى، دون أن تدري بأن البومة هي من قالت ما قالت، فاستمرت تُردِّدُ وتُردِّدُ كلماتها حتى وصلت واستقر بعضها حول الينبوع، وبعضها دخل بين الجموع المنظَّمة فأفسدها، إلا ما خشي بعض الحمير أن يثيروا غضبه فتلاشوه وجلسوا بعيداً عنه، وبعضها الآخر حاول تسلُّق الأشجار فلم ينجح فاستظلَّ بظلالها لاهثاً يائساً من محاولاته، كما أن حماران حاولا النزول إلا الينبوع لكنهما كادا يغرقانِ لولا مساعدة التماسيح لهما.

ساء المنظر الحيوانات كما ساء الأسد، لكن الكلمات راقت للأخير، فبقية الحيوانات لا تعامله معاملة الزعيم، بل معاملة من وُجِد لِيُنظِّمَ شؤون الغابة ويدفع عنها أي ظُلمٍ أو جَورٍ قد يقع. وهذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها تلك الكلمات الناعمة الرقيقة التي وجدت طريقها بشكلٍ عجيبٍ إلى قلبه، فتظاهر بالحزم وقال بنبرته الرعديّة: «اجلسوا حيث أنتم أيها الحمير، نحن نريد البدء الآن»، لكن تأثُّره بما سَمِعَ كشف شيئاً من الرّقة في كلامه، فهتفت الحمير بصوتٍ واحد: «أمرُك موالنا»، وكاد عندها الأسدُ أن يقفزِ من مكانه فوق الصخرة فيغطِسَ في الينبوع، يُصارِع فيخرُجُ من المياه ويُقبِّلُ جبينَ كُلِّ حمار، لكنه تمالك نفسه بصعوبة بالغة وقال: «قلت لكم اهدأوا، هيّا بنا نبدأ»، ثم نظر يميناً وشمالاً يحاول أن يُسقِط ما عَلِقَ من تَظاهرٍ على وجهه، لكنه فَشِل في ذلك ورأت الحيوانات لأول مرة في حياتها؛ أسداً طيب القلب. طارت بعد ذلك البومة بعيداً حتى حطّت مُجدّداً فوق جذع شجرةٍ عالٍ يمتلك زاوية رؤيةٍ جيّدة للمكان، وأخذت تنتظر كبقية الحيوانات المحاكمة التي أوشكت على البدء.

رفع الأسد يَدَهُ اليمنى وأشار نحو الأرانب التي تجلس بين الزرافات فتوارت عن الأنظار قدر الإمكان، ثم قال: «فلنسمع

جانب الأرانب بدايةً، أخرِجوا أحدكم ليروي لنا ما حدث»، ارتجفت سيقان الأرانب الرشيقة، وارتفعت آذانها الكبيرة تتنبّهُ للأصوات من حولِها، وأخذت تلتفتُ هنا وهناك لترى من سيخرج منها، تبادلوا كلماتٍ فيما بينهم، ثم خرج أرنبٌ صغيرُ الحجم رمقه الجميع بعين العطف والشفقة، فعيونه السوداء المدوّرة المتلألئة، ومشيته الهادئة، وشكله الجميل بفروه الأبيض يحاول أن يبان ويظهر بين الأعشاب الخضراء، كانت تلك صفاتٍ تذيب جليد أي قلبٍ كان، باستثناء قلوب الثعالب التي تفاعلت أفواهها مع منظره فسال لُعابُ بعضها، لكنهم تداروا فيما بينهم فلم ينتبه لهم أحدٌ وكُلُّ العيون موجَّهةٌ صوبَ الأرنب الصغير، رفع الصغير رأسه برويَّةٍ حتى رأى الأسد فوق الصخرة، ولم يكن قد نظر إليه مباشرةً قبل تلك اللحظة، فتردد بدايةً ثم تمالك نفسه على نحوٍ يُمكّنه من محاولة الكلام على الأقل، فقال بصوتٍ يرتجف: «مولانا الأسد...»، برُزت عيون الأسد لِما سمع وكادت تخرج من مكانها، إنها المرة الثانية، لقد تأثّر الأرنب بمنطق الحمير واستهلّ كلامه بالطريقة التي اختتموا هم كلامهم بها، قال الأسد في نفسه: «وحقِّ كل حيوانٍ أعرفه، إذا لم يبدأ الثعالب كلامهم بتلك الطريقة الجميلة لأستميلنَّ قلوب جميع من في الغابة إلى جانب الأرنب الصغير، ولو أنه قتل أحد أبنائي»، اقترب الأرنب في ذلك الوقت من الينبوع

فشرب من الماء ما يبلُّ به ريقه، ثم عاد إلى حيث كان يقف وأعاد؛ «مولانا الأسد، كنت وأبي نتنزّهُ قُربَ تلال الأرانب الخضراء، ضمن منطقتنا التي حددت لنا أيها الزعيم، نأكل العُشبَ ونشرب من مياه النهر هناك، نمشي على غيرِ هُدىً في المكان، أو نجلس فنتأمّل الطبيعة، يَقُصُّ عليّ والدي الحكايات وأنا أصغي، وكعادتنا ننتظر غروب الشمس؛ «لِنُمتِّع أبصارنا بألوان السماء» كما كان يقول أبي، حتى إذا انتهينا من رحلتنا تلك وهَمَمْنا بالرجوع إلى جحرنا؛ وإذ بثعلبٍ يراقبنا من بعيد، قال لي أبي ألا أخاف أبداً، فاليوم يومٌ جديد والعصرُ عصرُ القانون، لن يمسّنا أحدٌ من أولئك الذين كانوا قديماً لا يعرفون غير الفوضى والهمجية في حيواتهم، ولذلك لم أخف، مشيت بقربه وإذا بالثعلب يقترب منّا سريعاً، وقفَ أبي ليرى ما حاجته، لكن الثعلب انقضَّ عليه سريعاً و...»، لم يستطع الأرنب الصغير إكمال كلماته وبدأت الدموع تنهمر من عينيه، فثارت لأجلها الحيوانات واهتاجوا يريدُ كُلُّ واحدٍ أن يكون السبّاقَ في الهجوم على جمعِ الثعالب فينال منهم، حتى أن الثعالب توجّست الخيفة وتراصّت فيما بينها تحسُّباً لأي هجومٍ قد يقع، وتفاعل الجميع مع ما جرى باستثناء الحمير التي لم تدري ما الحكاية، فاكتفت بالمشاهدة.

زأرَ الأسد مجدداً وضرب بقائمتيه الأماميتين الصخرة، حتى هدأ الجميع فقال: «قد قَبِلتُم برأي البومة الحكيمة إذ قالت إن علينا أن نستمع للطرفين، ما بالكم أيتها الحيوانات!! قلنا لكم قد ولى زمن الفوضى والـ... والهمجية؛ كما قال أرنبنا الصغير، أَوَترجِعون إلى أحضانها بعد أن تحضّرنا وسبقنا جميع من حولنا من حيوانات؟ دعونا نستمع لبقية القصة، وليلزَم كُلُّ واحدٍ مكانه»، هدأتِ الجموع أخيراً، لكن ما في نفوسها ما هدأ، بل بصعوبة قُيِّدَ حتى لحظةٍ يخالونها قريبة.

أكمل الأرنب فقال: «أطبَقَ المُجرِمُ على رقبة أبي العزيز، وكانت كلمات والدي الأخير؛ «اهرب يا بني»، وذلك ما فعلت خوفاً يا مولانا»، أُجهِشَ الأرنب الصغير بالبكاء مجدداً، فعادت الحيوانات بأكملها لتهتاج، بينما تقدّمَ دُبٌّ وربَّتَ على ظهرِ الصغير وأرجعه إلى كنفِ الزرافات بين السناجب.

قال الأسد: «قد سمعنا قول الأرنب الصغير، وأنا غاضبٌ كجميعكم، أشعر كما تشعرون، وسنأخذ بثأر والد الأرنب الصغير وسنطبِّقُ القانون، ولن تباتوا الليلة إلا مطمئنّين سالمين»، ثم أشاح بنظره عن الحيوانات التي جلست أمام الينبوع، ونظر نحو الثعالب فقال: «اخرج يا زعيم الثعالب، أنت المسؤول عن أفراد قومك أمامي، أخبرنا ما الذي جرى وأين هو الثعلب الذي غدر بالأرنب؟ أخبرنا أين نجد الخارج عن القانون

الذي عاد ليأكل اللحم بعد أن أقسمنا ألا نقربه؟ أين هو ذلك الوغد؟ قل لي يا زعيم الثعالب أين؟». وازدادت أنفاسُ الأسد اضطراباً وهو يحاول أن يبدو غاضباً، لكن الأمر نجح هذه المرّة، فملامح وجهه تعمل بتلك الطريقة العجيبة.

نهض زعيم الثعالب وكشّرَ عن أنيابه وهو يقِف، ودفعت الابتسامة الخبيثة نفسها من بين فكّيه وهو ينظر نحو كل حيوانٍ وكأن لا فاجعة وقعت، ولا ذنباً قد اقتُرِفْ، أو كأنه لا يبالي بما سيحصل، فمشى حتى وقف في نفس البقعة التي كان يقف فوقها الأرنب الصغير سابقاً، ثم نظر نحو الأسد الذي يقف شامخاً أعلى الصخرة فوق الجميع، وقال: «مولانا الأسد، زعيم الغابة وكبير الحيوانات، أعقلنا وأرشدنا وأكثر من امتلك الحكمة، واضع الدستور ومُصلِحُ حالِ الغابة.. إنني والثعالب اليوم ما جئنا إلا تلبيةً لأوامرك، نتبع القانون الذي تُشرِّع، وننصاع للحكم الذي تُصدِر»، أغمض الأسد عينيه يتظاهر بعدم الاهتمام بما سمع، لكن قلبه في الحقيقة كان يرقُصُ فرَحَاً من المديح العظيم الذي طاله اليوم، ولأنه الأسد، توجَّب عليه الحفاظ على شموخه فنصب النظرة القاسية على وجهه وتابع كلام زعيم الثعالب بحذر.

بدأ زعيم الثعالب يمشي حول المكان بِقُرب الحيوانات فيخاطبها تارةً وتارةً أخرى يخاطب الأسد، فيقول: «إننا معترفون بالذنب الذي اقترفه أحدنا، ومُقِرّون بالخطيئة التي ارتكب، بل ونشعر جميعنا نحن جمع الثعالب؛ بالخزي والعار لما ألحقه ذلك النمرود بسمعتنا الطيبة التي دأبنا جاهدين على تكوينها مُذ كُوِّنَ قانون الغابة، ولم نحضُر اليوم مولانا لنطلب العفو أو الرأفة، فنحن مدركون لعاقبة مخالفة القانون، وكُلّنا فداءٌ لزعيمنا وكبيرنا الأسد ولقوانينه، ولذلك.. ها قد جئناكم بالذي اقترف الفعلة الشنيعة تلك، مقتولٌ ومُحرَّقٌ بالنار كما استحق بعمله»، ثم أشار الثعلب بمخلبه نحو جمع الثعالب، فأوسعوا المجال لبعضِ من يقفون منهم في المنتصف من الذين كانوا يستترون بالبقية، فحمل ثعلبان عوداً كبيراً خوزق به جسد حيوانٍ أحرقته النيران، مشوا به حتى رموه أمام زعيم الثعالب، ثم عادوا ليختفوا بين معشر الثعالب مجدداً.

وصلت الغربان تماماً مع إذاعة ذلك الإعلان لكن أحداً لم يلحظها وهي تأخذ أماكنها على أغصان الأشجار، فأمام أنظار الجميع منظرٌ عجيبٌ وغريب تقشَعِرُّ له الأبدان وتحتارُ لأمره العقول، أحقيقةٌ ما يجري أم خيال!! ذُهِلت الحيوانات مما رأت، إذ لم تُصدِّق بدايةً كلام زعيم الثعالب، لكنها ما لبثت أن رأت الثعلب الميّت أمامها وهو ملقىً على الأرض جثّةً هامدة،

لم يستطع أيٌّ منهم الكلام، فجميعهم دون استثناء يُحدِّق بالمنبوذ المعاقَبِ مسبقاً، وكذلك ذُهِلَ الأسد بما رأى وأخذ يُقلِّب الأمر في رأسه.

ساد الصمت لحظاتٍ حتى لم يُسمَع سوى صفير الريح في المكان، ومع أن المنظر ساء كثيراً منهم؛ إلا أنهم أدركوا ما جرى وشهدوا بأمِّ أعيُنِهم سطوة القانون، فعمّتِ الغبطة المكان، ونُشِر السرور بينهم، وامتلأت الأجواء بالأصوات المتداخلة وترددت أصداؤها، عواءٌ وزقزقةٌ فَغِناء، قهقعةٌ وضَحكِاتٌ فطرَبْ، قعقعةٌ وصفيرٌ فتنفيسٌ عن غَضَبْ، نعيقٌ ونهيقٌ فَنِفاقٌ وكَذِبْ، صُراخٌ وضغيبٌ فَلَعِبْ، زمخرةٌ وغطيطٌ فارتياح، همهمةٌ ونهيمٌ فحيرةٌ ودهشة، ضُباحٌ يستتر فلا مَكْرَ يبان، وأخيراً.. زئيرٌ فنصرٌ وعدالة.

زأَرَ الأسدُ كثيراً حتى تمكّنَ من إسكاتِ الحيوانات جميعها، لكنها صمتت في النهاية، فهدأ بدورِه وقال: «أيتها الأرانب، قد عادت لكم مكانتكم وسيعود السلام ليُطوّقكم بأذرعه الكثيرة، عيشوا وانعموا بسلامٍ واستظلوا بظلِّ القانون، وَأَعِدُكم بأن ما حدث لن يتكرر أبداً. أما أنتم أيها الثعالب؛ فقد أحسنتم صُنعَاً إذ طبقتم العدالة بأنفسكم على أنفسكم دون محاولةٍ للمراوغة أو

للتهرُّبِ من المسؤولية، لكن ولنؤكد على أهمية وجود القانون؛ فإنني آمركم بدفن جثة هذا الخائن بقرب الينبوع، وأقيموا صخرةً بارزةً فوق قبره ليكون عبرةً لمن يعتبر»، تبادلت الثعالب النظرات فيما بينها متردِّدةً فيما تفعل، حتى قال زعيمها: «سمعاً وطاعةً يا مولانا، ونحن بدورنا نؤكِّد لِكُلِّ حيوانٍ في الغابة، بأن ما حدث لم يكن إلا؛ حادثةً فردية.. ولن تتكرر، نحن الثعالب نعدكم بذلك»، ثُمَّ أومأَ برأسِهِ لمجموعةٍ من الثعالب فتحرّكوا على الفور وبدأوا بحفرِ قبرٍ للخائن، وبسرعةٍ يُعرَفونَ بها أتمّوا حفر القبر وقَبَروا الثعلب الذي سوَّلَت له نفسه الخروج عن القانون، أحضَرَ دبٌّ صخرةً كبيرةً دحرجها بيديه حتى التقطها فيلٌ بخرطومه، رفعها الفيل عالياً ثم دقّها بالأرض بقوّته العظيمة، فأصبحت شاهداً للقبر وعليه، وموعظةً يتَّعِظُ بِها من تُخالِجه أفكار العصيان والتمرُّد على قانون الغابة.

جمعت الثعالب بأفواهها حجارةً وأحاطت بها القبرَ كي تَتَّضِحَ معالمه للجميع، وما إن انتهت حتى قال الأسد يختتم المحاكمة: «هكذا نكون قد حققنا العدالة كما شهد الجميع، ونُذكِّركُم يا معشر الحيوانات بأن ما حدث كان حادثةً فردية، فلا تقلقوا وعيشوا باطمئنان تام، سنستأنف حياتنا المسالمة بأكل النباتات ولن نقرب اللحم أبداً، هذا ما عاهدنا بعضنا بعضاً عليه، ولَنُحافِظنَّ على هذا العهد ولنلتزمنَّ به، بإمكان الجميع

الانصراف الآن، باستثناء زعيمِ الثعالب، اتبعني حتى عريني، فلدي ما أقوله لك».

بينما فَرِحت الحيوانات؛ أو معظمهما على الأقل، لم يُفارِق الخوف الأرانب، بل إنّها استمرَّت تشعُرُ بالحزن والبؤس كما وصلت للمحاكمة التي انتهت قبل أن تبدأ، بينما لم تدري السناجِبُ بمَ وكيفَ عليها أن تشعُر، ومثلها كانت الزرافات، بينما كانت القرود أكثر من لم يَرُق له الأمر فقد أرادت دماءً واقتتال، لكن من ناحية أخرى فقد أَطفأتِ المحاكمة نيراناً كانت قد اشتعلت في صدور النمور والفهود والذئاب والدببة، بينما لم ترتح الفيلة والتماسيح للأمر لكنها آثرت مواكبة القطعان والجموع فتظاهرت بالفرح، أما الأسماك فسَعِدت لانتهاء تلك الأحداث حتى تعود فتسترخي في ينبوعها لا تأبَهُ بما يجري حولها إطلاقاً، أزعَجَ كُلُّ شيءٍ الأفاعي فغادرت منزعجة مثلما حضرت، وكما وصلتِ الثعالِبُ؛ غادرتْ وضحكاتُ الشرِّ لا تنفكُّ تَرتَسِمُ على وجوهها، أُعجِب الأسد بما دار في المحاكمة، فقد نال من المديح والتقدير ما لم يَظُنَّ أنه سيناله في حياته، وأعجبه منصبه وراقت له مكانته، لكنَّ أمراً آخر في تلك اللحظة كان يشغل تفكيره فلم تظهر السعادة على محيّاه بل تبدّدَت وغلبتها الحيرة.

حلّقت الطيور مبتعدةٍ غير عائدةٍ إلى المكان، أما النسور والصقور فلم تتمكّن من التنفيس عن غضبها بغرز مخالِبِها بثعلبٍ أو اثنين، فحلّقت بغضبٍ وكادت تصطدم ببعض الطيور في السماء، وكانت الغربان أكثر منها غضباً لأنها لم تَفُز من تلك المحاكمة بشيء بل أضاعت وقتها بالتواجد هناك، ومع ذلك كله يحدث في آنٍ واحد؛ لم ينشغل فِكرُ البومة إلّا بالخطاب الذي ألقته، فأغمضَت عينيها وهي تطير مبتعدةً وملأت صدرها هواءً وكِبَراً وغروراً، فطوَّقَها الفخر والرِّضى. لكنَّ أعجَبَ أمرٍ كان أمرَ الحمير، إذ رفضوا المغادرة بدايةً ووقفوا أسفل الصخرة وتعالت هُتافاتهم؛ «فلتحيا العدالة، هذه أحكام مولانا الأسد، هذه قوانين زعيم الغابة، فاسمعي أيتها الحيوانات جيّداً، هذا أبو الهيبة والوقار الذي لا يهابُ شيئاً، هو الليث الهِزَبرُ الـ....»، ومع أن الجميع كان قد غادر، حتى الأسَدُ نفسُه؛ إلا أن ذلك لم يُثبِّط من عزيمة قطيع الحمير ولم يؤثِّر بهم شيئاً فلم يتخاذلوا أو يتراخوا، فاستمرّوا يصيحون بهتافاتهم حتى كادت الشمس تغيب، وعندها قرروا الارتحال عائدين إلى الأرض المُخصَّصَةِ لهم من قِبَلِ الأسد، ومع أن اللون الورديَّ لا يعرف لها سبيلاً.. إلا أن الحمير أبت إلا أن تُسمِّيها؛ أرضَ الحميرِ الورديّة.

دخل الأسد حدود مِنطقتِه وزعيمُ الثعالِب يتبعه، وفي تلك المنطقة التي يعيش بها مَلِكُ الغابة لم يوجد من الأُسْدِ البالغة غيرُه، فالبقية إما لبؤاتٌ أو أشبال. مَشَيا حتى وصلا كهفاً عظيماً كانت تتواجد بداخله ثلاثُ لبؤاتٍ وأشبالٌ يلعبون، أَمَرهم الأسد بالانصراف وإخلاء المكان ففعلوا، ثم جلس فوق صخرةٍ نبتت عليها أعشابٌ فغطّت سطحها، بينما وقف أمامه زعيم الثعالب ينتظر قوله، ولم يتمالك نفسه من تَفَحُّصِ أركان الكهف الموحش، حتى سمع الأسد يقول:

«إن هذه الحيوانات التي أحكُمُها وأعمل على تنظيم شؤونها، فأُحمِّلُ نفسي فوق طاقتي للحفاظِ على أمنها وسلامتها... لحيواناتٌ أغبى مما قد يتصوَّرُ أي حيوان»، لم يفهَمِ الثعلب شيئاً فالتزم الصمت، فأكمل الأسد: «لو أن أحدهم امتلَكَ ذرّةَ ذكاءٍ لعرف أن الجُثّة المُحرّقة ليست ثعلباً، فالثعالبُ أخبث من أن تقتُلَ أحدها أو تُسلِّمه طواعيةً لي أو لغيري»، دُهِشَ الثَعلَبُ من كلام الأسد، وانتشرت سريعاً ملامح الخوف على وجهه، وبدأت قوائِمُهُ ترتجف وشعر للحظاتٍ ببردٍ شديد يسري في عروقه، فابتسم خوفاً ثم قال: «بالطبع هو ثعلبٌ يا مولاي»، قال الأسد: «إذاً امشي بنا نعود فننبش قبره ونُخرِجهُ ونَدَعُ الحيوانات تحكم فيما بينها إذا ما كان ثعلباً أم لا، ما قولك؟»، عرف الثعلب أن تلك مصيبة لا حلَّ لها بالكلمات، فاستجمع

قواه والتفتَّ سريعاً يَهُمُّ بالهرب، لكن الأسد وثب من على الصخرة وطرحه أرضاً بكفّهِ الأيمن، ثم قال: «لا تَخَف، لا أنوي قتلك، فأنا لست بذلك الغباء حتى أقتلك بعدما عرف الجميع أنّكَ تبعتني بطلبٍ مني، ولن أفرِّطَ بفرصةٍ ذهبيةٍ جاءتني على هيئة ثعلب، فاسمع ما لديَّ وإلا خرجتُ فجمعتُ كل الحيوانات وأخبرتهم بفعلتكم ثم نجتمع فلا نترك منكم غدّاراً»، رفع الأسد كفّه وعاد يجلس فوق الصخرة، بينما نهض الثعلبُ بصعوبةٍ إذ آلمه ارتطامه بالأرض، فالتفتَّ مجدداً ونظر نحو الأسد متألِماً متأوِّهاً.

«لقد شككتُ في أمركم إذ رأيتكم أكثر الفرحين بتحقُّقِ العدالة، فشعرتُ حينها بأن مصدر ذلك الفرح يكمن من تصديق الحيوانات للخاتمة التي قدّمتم، لا برجوع الحقِّ المسلوب للأرانب الضعيفة، لكنني لا أنكر عليك يا زعيم الثعالب أن اللحم لذيذٌ.. لا أستطيع إنكار ذلك حتى لو وددت، فلن أمنع نفسي من وجبةٍ بين الفينة والأخرى، ولن أمانع تذوُّقَ طعم اللحم مجدداً، ولهذا سأسمح لك بقتل الأرانب، أو السناجب، أو أي مخلوقٍ في الغابة تتمكنون منه، شريطة أن أنال أنا الحِصّة الأكبر في القسمة العادلة التي ستجري، وعند المحاكمة تُحضرون ما أحضرتم اليوم ونحكُمُ بأنها حالةٌ فردية أخرى ونُحقِّقُ بذلك العدالة. هل لديك مانع يا زعيم الثعالب؟»، لم

يعرف الثعلبُ هل يَرُدُّ أم يسكت، بل لم يدري أينظر إلى أسدٍ أم إلى ثعلبٍ أدهى منه وأخبث، فتح فمه يبغي الكلام لكنه لم يستطع أن يقول شيئاً إذ لم يعرف كيف يُشكِّلُ الكلمات، فقال الأسد: «سأعتبر صمتَكَ موافقةً على ما اقترحت، لكن قبل أن تنصرِف لديَّ سؤالٌ وحيدٌ لك أيها الملعون، ما كان الحيوان الذي أحضرتموه مقتولاً على أنه ثعلب؟ وإن لم تُجِب لأقتلنّك الساعة»، طأطأ الثعلب رأسَه ولم يجد سبيلاً غير الكلام وإلا قُتِل فالفرار أمسى مستحيلاً وقد طاب له ما اقترح الأسد، فقال: «كان ابن آوى»، دُهِشَ الأسد فسأل مجدداً: «أنتم تخافونه، كيف استطعتم قتله؟»، فقال الثعلب: «بحسن التدبير يا مولاي»، فردَّ الأسد: «بل بالخديعة والمكر أيها الخبيث، لكنني لا آبه، أحضروا واحداً في المحاكمة القادمة، أما اللحم فاكسوه بأوراقِ الأشجار وقم بإحضاره أنت بنفسك، هكذا سيتم الأمر من اليوم فصاعِداً، انصرف الآن»، قال الثعلب متداركاً صمته ودهشته: «أمر مولاي الأسد، وأعِدُك بأن أحضِر لك ما تشتهي نفسُكَ وتلذُّ به، ولن تندم ما حييت على هذه الفرصة التي أعطيتنا أيها الزعيم، وسنبقى لك شاكرين مدى الحياة»، ثم استدار الثعلَبُ ومشاعره متضاربة، فمشى وهو يُفكّرُ أنه لربما.. لربما.. قد فتحت له أبواب السماء باباً أسماه؛ باب الخير،

فَسَعِد وهرول متحامِلاً على آلامِهِ ليَزُفَّ الخبر سريعاً إلى بني جنسه.

لم يَكَد يمر يومانِ على المحاكمة حتى تكررت الحادثة نفسها، لكن أعداد الضحايا كانت أكبر هذه المرّة، فتناقلت الحيوانات فيما بينها أن خمسةَ أرانِبَ هوجِموا من قِبَلِ ثعلبين واختُطِفوا جميعاً، وبما أن الخبر تردَّدَ في أرجاء الغابة، وَجَدت الضرورة المُلِحّةُ طريقها نحو عقدِ محاكمةٍ جديدة، كما اقتضت المكيدة والضرورة في آنٍ واحد.

منذ تشريع القوانين وسنِّ الأحكام في الغابة؛ كانت تلك المُحاكمة هي الثانية في تاريخ حيوانات الغابة، لكنها لم تختلف كثيراً عن سابقتها، إذ اعتلى الأسد الصخرة، واحتشدت الحيوانات أسفلها وبدأ التظلُّم، شهد في هذه المرة ضد الثعالِبِ طيرٌ كان مارّاً فوق أرضِ الحادثة، لكنه لم يُقدِّم أوصافاً دقيقةً للجُناة، ولو فعل لم يكن ذلك لِيُغيِّر من النتيجة النهائية شيئاً، فالثعالب قد أحضرت مسبقاً مرتكبي الجُرم الشنيع وسلّمتهم للعدالة، مقتولين ومُحرَّقين.

ثم وقعت الحادثة الثالثة والأفعال هي نفسها تتكرر، ففي نهاية المُحاكمتين؛ سنقول أن الحيوانات قد سُرّت بالنتيجة النهائية التي نصَّت على أن ما حدث كان «حالةً فردية»، أو فلنقل أن السرور كان قد جانَبَ معظمها لا جميعها، فبعد قبرِ جناةُ الحادثة الثانية والثالثة بقرب موقع دفنِ الجاني الأول؛ عزمت كثيرٌ من الحيوانات على الرحيل، ولم يكن جميع المرتحلين من الأرانب، فلقد غادرت بعض الزرافات والسناجب معهم، فبدى وكأن الخوف قد تملّكهم، أو أن المستقبل المظلم سيدنو منهم في أي لحظة، فقالوا فيما بينهم؛ لربما تكرَّرَتِ الحادثة وأُكِلت أرانبُ جديدة، فما القانون فاعلٌ عندها؟ هل سيتمكن من إعادة إحياء أولئك اللذين وافتهم أسنان الثعالب قبل أن توافِهِمُ المنية؟ أم أن القانون سيتمكن من إيقاف الجريمة بعقابٍ رادِع؟ لكن، ومهما يكن فعل القانون عندها ومهما كانت الاحتمالات الواردة في ذلك الباب، إلا أن احتمال تسليم الثعالب للجناة منهم، مقتولين ومُحرّقين، بدى هو الاحتمال الأقرب للحدوث من الزاوية التي تنظر الحيوانات المهاجرة منها. لذلك، قرروا الفِرار قبل أن ينتهي أمرهم بمخلبِ ثعلبٍ أو بمخلب الخوف، ولربما لم تدري الحيوانات أن مخلباً آخر كان أخطر عليهم من سابِقَيه، مخلبٌ يدعى.. مخلبَ القانون.

بعد محاكمة الحالة الفردية الرابعة، وبعد أن راح ضحيَّتها نحو الخمس عشرة أرنباً؛ ترددت في الغابة جملَةٌ تُردِّدُها الغربان كثيراً، فتقول: «خلفَ ظلام الليل الحالِك، يوجد ليلٌ أحلكُ ينتظر دوره».

في الحادثة الفردية الخامسة، قُتِلَ وأُكِلَ أكثر من ستين أرنباً، ومع أن الوقت كان قد تأخَّرَ على فَهمِ الدافع الذي يُحرِّكُ الثعالِبَ لتأكل الأرانب ثم تقتل الجناةَ منها وتُحرِّقهم؛ إلا أن الحيوانات أرادت أن تعرف السبب، فمن غير المنطقي أن يكون طعم اللحم لذيذاً إلى تلك الدرجة التي تدفع مُحِبّه إلى التضحية بنفسه لتذوُّقه مرة أخيرة، ولذلك؛ سألت الحيوانات الأسد في المحاكمة أن يجد لهم حلّاً فإما يكشِف عن سِرِّ عدم خوف الثعالب من القانون، أو يخلِقَ سبيلاً يحمي فيه القانون من القانون. لكن الأسد كان أدهى من جميعهم، فأسند ما يحدُثُ لاضطرابٍ يُعاني منه المجرمون، فلا يقومون بما يقومون به واعيين بل غير مدركين لأفعالهم، أما العاقلون فيحترمون القانون ويتّبعونه ويثْبعونه كيفما كان شكل الطريق الذي يأخذ ومهما كانت نهايته، وذكّر الحيوانات بأن ما يهمّ هو تحقيق العدالة ودحرُ الشر، وأكد أن ذلك ما يحدث في كل مرّة؛ فالجناة يُسلّمون دائماً للعدالة التي لا تنفكُّ تُحقَّقُ وتستعيد سطوتها واسمها في الغابة، فتُثقِلُ عند انبساطها كاهِلَ كُل من تُسوِّلُ له

نفسه بالتشكيك بقوة القانون، فتخافُ الحيوانات من القانون نفسه الذي يحميها، لكن الجريمة ولسببٍ ما.. لا تتوقف.

في الحادثة الفردية السادسة هاجمت الثعالب السناجب، من باب التغيير، ولعدمِ إخافة الأرانب حدّاً يجعل جميعها تهرُب وتغادر غابة القانون. لكن وفي كل مرة كانت تُعقَدُ محاكمةٌ لم يُشغَل فيها ذهن الأسد سوى بوجوبِ امتلاءِ معدته لاحقاً باللحم، فقد طاب له وأقسم أنه لن يفارقه مجدداً فيعود لأكل النباتات كما تفعلُ كُلُّ الحيوانات خاضعةً للقانون، وحلمه ذاك لا يتحقق إلا بمعاقبة الجاني أمام جمع الحيوانات، وذلك ما تأكدت الثعالب من حصوله في كلِّ مرة؛ بإحضارها المجرمين مقتولين ومُحرّقين.

كان بعد ذلك أن حدث أمرٌ كاد يقلِبُ الغابة رأساً على عَقِب، ففي إحدى زيارات الثعلب للأسد التي يجلب فيها له اللحم؛ وصل زعيمُ الثعالبِ إلى عرين الأسد لاهِثاً شاحب اللونِ والعرقُ يتصبَّبُ من أنحاء جسده، فقال: «مولاي الأسد، حدثت المصيبة وستقعُ على رؤوسنا، وإني لأشعُرُ أن الأرض ستبتلِعُنا اليوم، ولن يتركوا منا أحداً»، قال الأسد بنبرةٍ غاضبة: «ما بالك

أيها اللعين؟ أي مصيبة جئت بها؟»، قال الثعلبُ وهو يحاول التقاط أنفاسه: «لقد دخلتُ حدود منطقتك مولانا وأنا أحمل صُرّة اللحم بعد أن كسوناها بأوراق الشجر، كما أمرتني سابقاً، وكما أفعل كل مرة، حتى إذا أمست المسافة التي تفصلني عن العرين قصيرة؛ شعرتُ بتعبٍ شديد وإرهاقٍ لم أشعُر به في حياتي، فوضعتُ الصُرّة على الأرض بعد أن كُنتُ أحمِلُها بفمي، وإذا بضبعٍ يُباغتني فينقَضُّ عليَّ يريد أن يقتلني، أولئك المتوحّشون الذين لا يعرفون قانوناً، قَدِموا من خارج الغابة يريدون الشرَّ بنا وَبِقانوننا الذي يحمينا، لا أدري لماذا قدموا لكننا في ورطة، فلقد رأى الضبع الصرّة ومزّق أوراق الشجر فأبصر اللحم، فقال لي: «وحقِّ كُلِّ كريهة فعلتَها أيها الخبيث لأخبِرنَّ كل حيوانات الغابة، ولأجمعَنَّ الضباع كُلّها نُشعِلُ ثورةً فلا نبقي منكم ثعلباً، ثم ننال من كبيركم، فقُل له أن يتلذَّذَ بهذه، فهي وجبته الأخيرة»، ثم انطلق يعدو فأخذتُ الصُرّة بعد أن لملمتها وأتيت إليك مولاي، فماذا نحن فاعلون؟»، قال الثعلب كلماته الأخيرة بعد أن انسابت دموعُ الخوف على خدّيه وأطبق على أسنانه بقوّةٍ اضطراباً وقلقاً، بينما غَضِبَ الأسدُ أيّما غضبٍ وأطلقَ زئيراً هُزّت على إثرِهِ أركان الكهف. ثم قال:
«انطلِق فأخبِر البومة أن تجمع لي على وجه السرعة الحيوانات كُلّها، هيا انطلق»، وكان له ما أراد، فاجتمع بهم في نفس البقعة

التي يتظلّمون بها، وما كان منه إلا أن استعان بالبومة تُلقي خطبةً عن الأعداء المحيطين بهم، تقصِدُ بقولها الضباع، فرفعت من قوتهم و شِدة بطشهم حتى شعرت الحيوانات أنها تُقابِلُ خطرَ حيواناتٍ أسطورية، ثم حطَّتْ من شأنِهم ودنَّست أسماءهم فاختلط الأمر على الحيوانات، حتى دعتهم باسم الأسد للقتال دفاعاً عن أرضهم، وما كان منهم إلا أن لبّوا النداء فخرجت قطعانهم وتوجّهت خارج الغابة تقصِد قطيع الضباع، تَدُلُّها الصقور والنسور حتى وصلوا، فاقتتلوا وأبادوا آخر ضبعٍ كان يعيش بالقرب من غابتهم، بينما قُتِل منهم ستة ذئابٍ ودبّانِ ونمرٌ واحد. وكانت الحمير بانتظارهم في الغابة فاستقبلتهم أيما استقبال، وهتفت لهم بدايةً ثم ما انفكَّت تهتف للأسد، وبانتهاء تلك المعركة تغلّبت الحيوانات بقيادة زعيمها؛ على الخطرِ المزعوم الوحيد الذي كان يُهدِّدُ سلامة الغابة وسكانها وقانونها، وعاشوا بعد ذلك في كَنَفِ الحالات الفردية؛ حتى هلكوا كما هلك المنسيون من قبلهم فلم يبقى لهم أثر، ولم يُخلِّفوا وراءهم سوى ذِكرٍ تتوارثه الحيوانات قصصاً بين بعضهم بعضاً، قصصٌ ما فيها عِبَرٌ بل جهلٌ وتغافلٌ ورضىً زائف، فموتٌ وهلاك وزوال.

- (لبيبة): وهكذا تنتهي القصة يا سادة.
- (ماسِيّ): إنها لقصّةٌ عجيبةٌ يا لبيبة، لم أفهم كيف حدث ما حدث ولَزِمت الحيوانات الصمت ورضيت بالنتيجة، فما فائدة القانون إن هو قضى على المُجرِم؛ وعجِزَ عن القضاء على الجريمة؟ وما شأن الضحيّةِ بِتَحقُّقِ العدالة، فإن هي صُرِعت ماتت وانتهى أجلُها بغفلةٍ من ذاك القانون أو بتراخٍ من مطبّقيه، وإن نجت الضحيّةُ تُرِكَت لِتُصارِعَ الحياةَ وحيدةً بما تبقّى فيها من حياة، وذاك كُلُّه مهما يكن؛ فلا يمكن له مُطلقاً أن يكون عدالة.
- (فاتك): هذا صحيح، لكن أعجب أمرٍ كان الأسد الذي امتلك طباع الثعالب، فلم أسمع في حياتي أخبث من فعلته أو أشرَّ منها.
- (لبيبة): قد قلتُ لك أنا والماسيّ، إن الحياة عجيبة مليئة بالعجائب، تستحق أن نعيشها.
- (فاتك): سنرى بهذا الشأن أيتها السلحفاة.
- (ماسيّ): ومع هذا فإنني أرى أن الحيوانات نالت ما استحقّت بطاعتها لمحتالٍ ماكر، فاللوم كُلُّ اللوم عليها أنها لم تحاول في مرة تحقيق العدالة بنفسها وبدى وكأن التراخي أعجبها، فالعدالة ستتضح وتتجلى لا ريب في

النهاية دون تدخُّلِ أيٍ منهم، فصمتوا وغضّوا الطرف عن حجم الدمار الذي يخلّفه تطبيق القانون مهما بلغ.

- (لبيبة): لا يستلزم أن يطبِّقَ كل واحدٍ منّا القانون بنفسه، لكن يستلزم أن يحمل مُطبِّقه صفاتٍ تؤهله لذلك المنصب، فلا يخون ولا يكذب ولا يُخادع، بل يتحمّل المسؤولية ويصبر لينتصر للجميع لا لنفسه، وكذلك أمر القانون إن هو لم يُطبَّق على الجميع أمسى وسيلةٍ للتهرُّبِ من العقاب بعد إحكام القبضة على الجموع، فذاك الأسد أخضع الحيوانات لقانونه ولم يلتزم به، لكنهم صمتوا وقبلوا بالوضع، وكانت نهايته الزوال كغيرهم بعد العيش في ذُلٍّ وخوف ومهانة.
- (ماسيّ): صدقتي يا لبيبة، لم تعيشي كل تلك السنين دون فائدة، إنك حكيمة فعلاً.

وبينما كان ماسيٌّ يضحك بصوت مرتفع لوحده؛ لاحظت لبيبة أن فاتكاً قد صمت بعض الشيء وأغلق عينيه يُفكِّر، فقالت: «ما بالكَ يا فاتك؟». فأجاب:

- (فاتك): سأقول فيهم شعراً، ما رأيكم؟
- (ماسِيّ): إن كانت الدببة تُحسِنُ قول الشعر؛ قُل.

- (فاتك): إن كنتم تريدون الصدق فإنني لا أحسِنُ الشعر ولا أعرف عنه إلا القليل، ولربما وجدتم في كلماتي كُلَّ الخطأ، لكن مشاعري مضطربةٌ الآن ولن أتوقف، فاسمعوا ما لدي..

في صُبحٍ

أحلَكُ مِن ليلٍ ديجورْ

أقبَلَ ضبعٌ

يُكنّي نفسه بأبي لِبدة

مدحُهُ فرضٌ، ومن زاد فمن عنده

لا تَقُلِ الحقَّ بتاتاً

وبذلك، تُحمَدُ وتُعظّمْ

وامدَح مولانا الأسدَ

وقل فيه، كذباً كَذِبا

فالإنصافُ هنا محظور

جعل الوغدُ من الغابةِ، غابة
ونادى القانونَ القانونْ!!
قانونٌ يجعلُكُم واحِدْ
فالغربانُ اليومَ بصوتٍ
هو للمصغي
تغريدُ الشّحرور

جَمَعَ الكُلَّ وأتبَعَ يكذِب ويقول:
سَنُحقِّقُ في الأرضِ عَدالة
وسننشُرُ في الغابِ سرور
ظِلُّ القانونِ عظيمٌ
أعظَمُ من ظِلِّ الكافور
كَذِبٌ، وغباءٌ، وبهائم
فمقدار العلم بكلِّ الغابة
لم يتعدى يوماً؛
الميسور

ولِهذا، حلَّ السَّخَطُ
فيقالُ إذا عمَّ الجهلُ
في أرضٍ وتفشّى النَهَمُ
يأتي ويّاها غضبٌ
زلزالٌ، فيضانٌ، إعصارٌ
أو هيصورْ

أقبَلَ جمعٌ، يجمع من صِفةٍ ألفاً
فغبيٌّ يترأسُ جمعه..
لا يعني واحد، بل ألفاً
خضعت فيلة، وذِئابٌ وفهودٌ ونمور
تماسيحُ ودببة وصقور
أسماكٌ وقرودٌ وطيور
أي بالأحرى وجبَ القولُ..
خضعتْ غابة

سَنَّ بلا عقلٍّ أو فِهمٍ أو إدراك
ما أسماهُ، الدستور
واستلَّ بيده اليمنى قانوناً
وبيده اليسرى قانونْ
وعلى من عارَضَ قانونه
أن يُقتَلَ أو يُحرقَ حيّاً
أو يُخرَجَ كُرهاً
فيهيمَ في الأرضِ دُهور

وإذا رِدتَ الحلَّ الأسمى
عَيشاً رَغِداً
وضَحِكاتٍ، تُطلِقُها ثغور..
اِجهَل وتغابى ثم اصرُخ
مولانا، مولانا
ثم ارقُص طرباً، وابتَهِلِ

كِبَراً وتعالٍ وغرور
كحمارٍ ظنَّ فِعالهُ
ترفعُ مِن قدرِه
أو تُعلي من شأنه شأناً
فطموحُ حمارِ المرعى
بسيطٌ، ويُلخَّصُ بسطور
أن تَطلُع شمسٌ في يومٍ
فيصيرَ مُهاباً مُعتَبراً
ويُكنّى بأبي الأخطار
وذاك وإن تدري
حلمٌ راوَدَ كُلَّ حمار
حيّاً كان، أو مقبور

هذي أرضُ فساد
أرض فجورْ
ما فيها إلا السفلة

أشباحٌ، رضيت بجحور

فائذَن أن يمسس عقلك

شيءٌ من ضوءٍ، أو نور

فِرَّ وغادرْ

حاذِر أن تنظُرَ للخلف

فالجنّةُ أرضُكَ قد أمست

بِهِمَمِ القَوّادِ..

ماخوزْ

(فاتك): ها، ما رأيكما؟

(ماسيّ): هذا لا يشبه الشعر في شيء، والتشبيهات فيه غريبة، لكنه أعجبني.

(لبيبة): وأعجبني أنا أيضاً. فلنغادر الآن هذه الأرض المشؤومة.

(ماسيّ): أنتِ لا تمشين حتى أيتها السلحفاة، تعطينني الأوامر وأنا أحمِلكِ على ظهري.

(لبيبة): تذكَّر أنك مدينٌ لي مدى الحياة.

(ماسيّ): حسناً حسناً، دعونا نكمل طريقنا شَمالاً.

(فاتك): إلى حيث الينبوع الأخير.

(لبيبة): هيّا بِنا.

النهاية

Facebook: www.facebook.com/amerdpov

Instagram: www.instagram.com/amerdpov